جامعة أبي بكر بلقايد
كلّية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار
المستوى: السنة الثانية ، السّداسي: الثاني
عنوان المقياس: تاريخ وآثار المغرب الإسلامي 2

السّنة الجامعية: 2024/2023
التّخصص: علم الآثار العام
أستاذ المقياس: بن حمو

الرّقم التّسلسلي للدّرس في المقرر الوزاري: 02

عنوان الدّرس:

علاقة السياسة بالنشاط العمراني والعلمي في المغرب الإسلامي بعد الدولة الموحدية 2

بخصوص **الدولة المرينية** ففي سنة 708هـ/1308م اختط أبو ثابت المريني بلد تيطوان لمعسكره بالقرب من سبتة، ولما توفي هذا الأخير خلفه أخوه أبو الربيع وكانت أيامه خير أيام هدنة وسكونا وترفا لأهل الدولة، وتنافس الناس في بناء الصروح واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام وزخرفوها بالزليج والنقوش، واستنجد العمران وظهرت الزينة والترف.

وفي عهد أبي الحسن المريني ازدهرت فاس وغيرها بمنشآت هذا السلطان، فمن ذلك ما كان بفاس من مآثر جميلة وبنايات حفيلة كمسجد الصفارين ومسجد حلق النعام وهما كبيران وصومعاتهما عالية، وبنى مساجد عدة وصوامع بالمدينة البيضاء كذلك، وبالمنصورة من مدينة سبتة الجامع المتصل بالقصر السعيد، ومساجد كذلك بها كثيرة، وبمدينة طنجة وسلا وشالة ما يقضى منه العجب، وبقصبة مدينة تازى ومكناسة ومراكش، وما بناه أيضا بالمغرب الأوسط، وأما المساجد والزوايا في سائر البلدان والمناهل فلا تدخل تحت الضبط، وأنشأ أيضا مدرسة الصهريج بعدوة الأندلس في فاس، كما أنشأ المدرسة الكبرى مدرسة الوادي ثم المدرسة الكائنة جوفي جامع القرويين وتعرف بمدرسة الصباح، ثم أنشأ في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة، بتازى ومكناسة وسلا وطنجة وسبتة وأنفي وأزمور وأسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير، وبتلسمان وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان ، وحبس على المدارس كتب نفيسة ومصنفات مفيدة، كما جدد مارستان فاس وغيره، وأضاف ابن مرزوق:"وأخبرني ابن فرحون قال: ما مررت في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع-أي صهاريج- التي يعسر فيها تناول الماء للشرب والوضوء، فسألت عنه إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله، قال ابن مرزوق: وصدق فإن أكثر السقايات المعدة للإستسقاء وسقي الدواب بفاس وبلاد المغرب معظمها من بنائه، وكذلك أكثر الميضآت، أما القناطير فقنطرة وادي ردات وقنطرة بني بسيل وقنطرة الوادي بداخل فاس وقنطرة الرصيف وقنطرة وادي سطفسيف-صفصيف- بتلمسان وقنطرة باب الجياد وسد سيرات وقنطرة ميناء"، وذكرنا من قبل ما قام بإنشائه هذا السلطان بتلمسان، كما ذكرنا أيضا إصلاحه لأسوار تونس، وبصفة عامة لقد اتسم عهد أبي الحسن بنهضة عمرانية وعلمية كبيرة، وكذلك الحال في عهد خلفه أبي عنان، فمن الناحية العلمية كان أبو الحسن يعقد مجالس للعلماء، ولما انتقل إلى تونس نقل معه حشدا كبيرا من العلماء استقر بعضهم هناك، أما أبوعنان فكان شغوفا بمناظرة العلماء وله مساهمات في علوم شتى وكان شاعرا.

وفي عهد أبي سالم المريني اتجه هذا الأخير سنة 761هـ/1359م لأخذ تلمسان فخالفه أبوحمو الزياني إلى المغرب ونازل وطاط وبلاد ملوية وكرسيف مع جنده ، وحطّموا زروعها وانتسفوا أقواتها وخرّبوا عمرانها، و في عام 780هـ/1378م قُسمت الدولة المرينية بين أبي العباس في فاس وعبد الرحمن بمراكش، ولما خاف عبد الرحمن على نفسه حصّن قصبة مراكش بأسوار وحفر الخنادق، وبعد هذا العصر ظهر التسلط الوطاسي كما ظهر الخطر المسيحي ، كما رأينا ذلك في المبحث التاريخي لهاته الدولة.

وبالنسبة للفترة العثمانية فبالاستقرار النسبي في كل من المغربين الأدنى والأوسط فإن البايات اهتموا بتشييد المساجد وسخّروا الأوقاف الطائلة لمشاريع البر والإحسان وأجروا المياه للمنفعة العامة، وشهدت الجزائر العاصمة بصفة خاصة –و مثلها العواصم الأخرى- حركة عمرانية كبيرة بالإضافة إلى بناء الحصون والمدارس والقصور والحمامات والمستشفيات والقلاع الضخمة، وكان لمهاجري الأندلس الدور الكبير في الإزدهار العمراني بخبرتهم الفائقة في العمارة والزخرفة، وذكر فيلالي ولعروق مثل هذا الكلام على مدينة قسنطينة.

ويمكن في الأخير أن نخلص إلى أن الصراعات التي حدثت بين هذه الدويلات أثرت على الجانب المعماري، فغالبا ما ينتج عن تدخل دولة في دولة أخرى خراب العمران وتحطيم المباني، لأن الغالب على هؤلاء السلاطين الذين ذكرناهم آنفا إذا اتجهوا إلى عاصمة أي مدينة-وبطبيعة الحال فإن هذه المدينة ستدافع عن نفسها- إلا وحاصروها وهاجموها وحاولوا دخولها، وينجم عن هذا تضرر كبير في المباني، ثم إن أصحاب هذه المدينة كلما خرج عنها هؤلاء المعتدون إلا وأعادوا بناء ما تخرب، كما أن الصراعات المتتالية منعت الكثير من الحكام من الاتجاه للبناء والتعمير، ولكن كلما وجدوا فرصة استقرار وأمن إلا وانشغلوا بتطوير مدنهم وازدهارها.

المدرسة البوعنانية بفاس

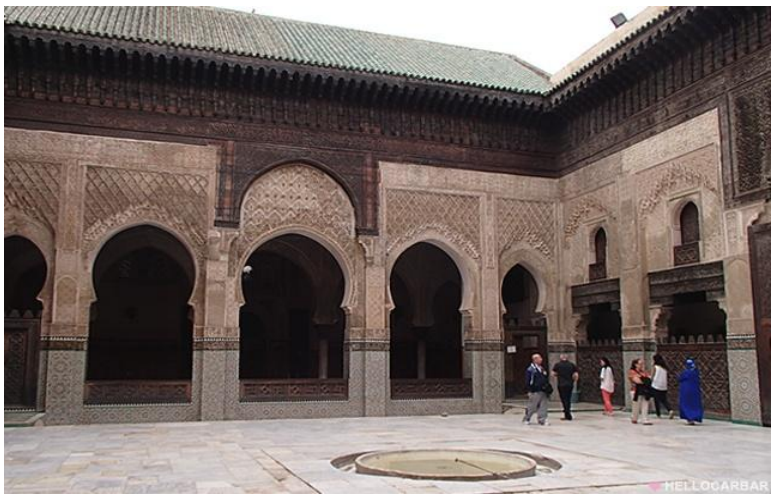

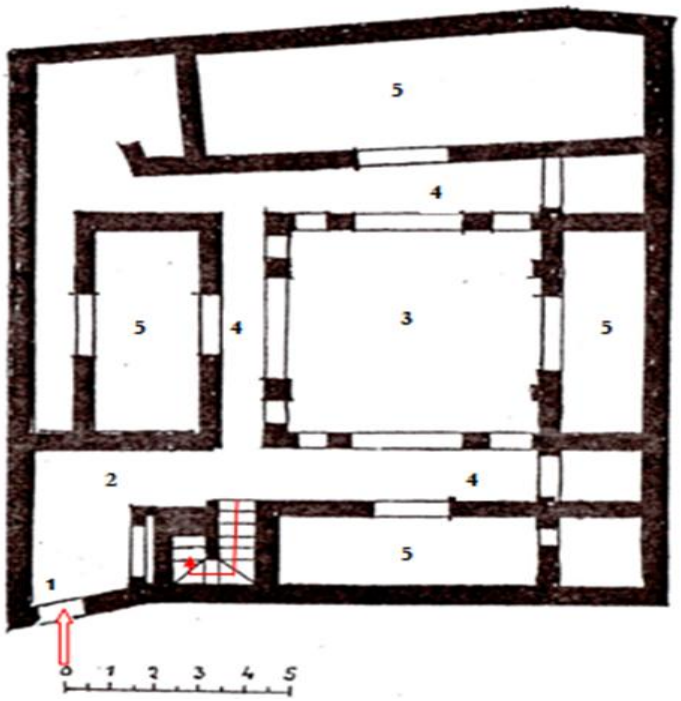

مسكن مريني:

1- مدخل.

2- سقيفة.

3- صحن.

4- أروقة.

5- غرف.

بالنسبة للجانب العلمي:

لا شك أن مثل هذه الصراعات بين هاته الدويلات كانت تؤثر على المسيرة العلمية للعلماء، فإن الاستقرار الأمني مدعاة للاستقرار العلمي وتطوره، وعدمه يتسبب في التدهور العلمي والفكري، ولعل مثل هذه الصراعات التي ذكرناها من قبل دفعت ببعض الباحثين إلى القول بأن الحركة العلمية ركدت في هذه العصور، وقال عبادة كحيلة:"أنه رغم كثرة الوجوه العلمية وتعددها فإن من صعد منها إلى مكانة عالية عدد يسير، من بينها ابن الخطيب وهو أندلسي قبل أن يكون مغربيا، و ابن خلدون وله من الأندلس أصله البعيد، ثم إنه قضى الشطر الأخير والأهم من حياته بالمشرق ومصر على نحو خاص"، ويضيف"وليس لدينا من تفسير لهذه الظاهرة سوى أن الثقافة العربية الإسلامية في ذلك الزمان(أواخر العصور الوسطى) كانت قد توقفت عن النمو وأصابها الركود بعد أن فارقت عصورها الزاهرة"، ولا يمكن أن نسلم بهذا القول دون قيد ، فنقول إن الباحث الذي يرجع إلى كتب التراجم لتلك العصور فإنه يجد بها عددا كبيرا من أهل العلم، ومنهم المجهولون في كل المغرب الإسلامي، ومنهم من أُهملت مؤلفاته ومنهم من لم تصل إلينا كتبه، ومنها عدد كبير جدا لا يزال مخطوطا في المكتبات الوطنية العربية والأجنبية بل والمكتبات الخاصة، وهنا يقع اللوم علينا نحن المغاربة لأننا وإلى الآن لم نعط لدراسة المخطوطات حقها ولم نوجه إليها الدارسين الأكاديميين لدراسات عليا ، وهناك

أطروحتي دكتوراه أنجزتا في هذا الميدان في قسم التاريخ بتلمسان، الأولى الموسومة ببيوتات العلماء بتلمسان، والثانية تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط، تدلان على أن عدد العلماء كان لا بأس به.

وهناك نقطة أخرى وهي أن العلماء الذين ذكرهم كحيلة وأنهم بلغوا إلى مراتب عليا كابن الخطيب وغيره، فلنا أن نتساءل أليس كل واحد من هؤلاء الأعلام الذين بلغوا إلى تلك المراتب قُتلوا على يد الحكام بالظنة ودون تثبت، فابن الخطيب قُتل، ويحيى بن خلدون قُتل، وابن الأبار قُتل، والغبريني أيضا قُتل، وغيرهم كثير من الذين كانوا يحيطون بالحكام، فلعل هذا سبب وجيه في اعتزال العلماء للحكام، بل لعل انتقال عبد الرحمن بن خلدون إلى المشرق هذا من أهم أسبابه، فإنه كاد يُقتل بالظنة، ثم إنه تقرب لكل من الحكام الحفصيين والزيانيين المرينيين وعمل معهم فوجد الحروب بينهم متواصلة ويقتل الواحد منهم من يخالفه أو يشك فيه، لذلك انتقل إلى مصر للاستراحة من مثل هذه الظروف التي لا تساعد العلماء على الظهور والبروز.

وهناك نقطة أخرى لا تقل أهمية وهي أن عدم الاستقرار في مدينة ما يدفع بعض العلماء إلى التنقل إلى بلدان أكثر استقرارا، فهذا الونشريسي مثلا فر إلى فاس بسبب مشكلة مع الحاكم الزياني، وهذا المقري اتجه إلى فاس للعلم والاستقرار ولم يحبذ البقاء في وطنه، وأيضا ابن مرزوق صاحب المسند استقر بالمغرب ثم تونس.

ولقائل أن يقول لماذا جعلتم فترة هاته الدويلات فترة صراع واحتدام فقط وركزتم على ذلك، ألم تكن هناك نهضة عمرانية وثقافية؟ فنقول لا ننكر مثل هذا لأن الصراعات لم تكن ليل نهار ولم تكن مستمرة دائما، فخلال فترات الهدوء كان سلاطين تلك الدول يتفرغون للبناء والتعمير والتشييد والإصلاح- وكنا ذكرنا طرفا من هذا- ولكن سرعان ما يعود الأمر إلى الحرب والصراع، ثم كيف نفسر عدم وجود الوحدة بين الدويلات؟ ولماذا قتل الوالد ولده والولد والده والأخ إخوته فضلا عن التصارع مع سلطان دولة أخرى؟ ولماذا استعانوا بالنصارى على إخوانهم المسلمين من أجل البقاء على العرش؟ ولنا أن نتساءل أليس هذه الأسباب هي التي جعلت المغرب الإسلامي يُحتل من قبل الإسبان والبرتغاليين؟ فقد أُخذت معظم المدن الساحلية وأحيانا تنازل عليها الحكام المسلمين لصالح أعدائهم، وأصبح النشاط البحري يكاد ينعدم، وهو نفس السبب الذي أدى إلى الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية، وكان هذا سببا فيما بعد للاستعمار المباشر الذي طال كل بلدان المغرب والمشرق الإسلامي.

فعلينا أن نقولها وبصراحة دون محاولة تغطية ذلك-لأنه كما قيل من كتم داءه قتله- بأن البعد عن تعاليم الإسلام التي تأمر بالوحدة وتُحد من حظوظ النفس لصالح الجماعة هي التي جعلت العالم الإسلامي بأسره يتأخر ولا يزال متأخرا.

ورغم هذا فإن الحركة العلمية لم تتوقف لأنها ليست بالضرورة ملازمة للسياسة، فليس معنى التدهور السياسي في تلك الدول في تلك الحقبة التاريخية معناه بالضرورة التدهور العلمي، لأن من اشتغل بالسياسة من العلماء عدد يسير مقارنة مع من بقي يعلم وينشر علمه ويؤلف، لذلك فقد استقرت الحركة العلمية في هاته الأقطار ولكن بدرجات متفاوتة، ويكفينا للتأكد من ذلك أن نقرأ نبذة عن حياة بعض العلماء في مقدمة كتبهم لنعلم عدد العلماء الذين أخذوا عنهم، وعن أولئك الذين تخرجوا على أيديهم وعلى نوعية العلوم التي كانوا يدرسونها، ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر مقدمة كتاب الشماع الأدلة البينة النورانية ، وكتاب الزركشي أخبار الدولتين وهما من المغرب الأدنى، ولنقرأ مقدمة كتاب التنسي تاريخ بني زيان وكتاب يحي بن خلدون بغية الرواد وهما من المغرب الأوسط، ولنقرأ مقدمة كتاب ابن أبي زرع الأنيس المطرب وكتاب المقري نفح الطيب وروضة الآس وهما من المغرب الأقصى، ولنا في حياة عبد الرحمن بن خلدون كفاية وفي مقدمته ذكر أنواع العلوم وأصحابها المتقدمين والمتأخرين، وهو بذلك يعطينا فكرة عن العلم والعلماء وعن الثقافة بصفة عامة في تلك العصور، وفي هذا الصدد يقول محقق كتاب التيسير في أحكام التسعير بأن المدينتين-يعني فاس وتلمسان- كانتا عبر التاريخ الإسلامي تتبادلان الثقافة والمثقفين، فكثير من رجال البلدين نزح عن مسقط رأسه إلى الموطن الآخر، وهذا القول ينطبق على المغرب الأدنى إذ كانت تونس وبالأخص الزيتونة منارة علم ومنها تخرّج الكثير من العلماء، وعلاقتها بالمغرب الأوسط بصفة خاصة لا تخفى، ولنذكر على سبيل المثال ما قام به أبو الحسن المريني لما انتقل إلى تونس وقد أخذ معه حشدا كبيرا من العلماء من المغربين الأقصى والأوسط استقر بعضهم بتونس، كما أن كثيرا من العلماء في ذلك الوقت كانوا يرحلون في طلب العلم للحواضر العلمية كفاس وتلمسان وبجاية وقسنطينة وتونس والقيروان.

وإذا ما وصلنا إلى العصر العثماني فقد عرف المغرب الأدنى والأوسط نوعا من الإستقرار أثر إيجابيا على الناحية العلمية، فقد برز عدة علماء كان لهم صدى واسع في تلك الفترة ولنذكر على سبيل المثال يحي الأوارسي مفتي الديار القسنطينية وأيضا أحمد المقري الذي استقر به المقام بمصر، وأيضا العلامة شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون والثعالبي وغيرهم كثير جدا، منهم المعروفون ومنهم غير المعروفين.

- بخصوص نظام الحكم فقد كان وراثيا في كل من الدويلات الثلاث.
- استفادت الدويلات الثلاث من الأراضي الزراعية والفلاحية التي كانت تتوفر عليها المنطقة.
- بخصوص التجارة كانت على النهج السابق مع بعضها البعض ومع بعض الدول الأوروربية ودول المشرق بالإضافة إلى الدول الإفريقية خاصة السودان لتوفر الذهب.
- أما المسكوكات فلقد كانت أيضا على نفس نهج المسكوكات الموحدية.

بعض مراجع الدرس:

- عبد الرحمن ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**.
- محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن** ، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا.
- عُبادة كُحيلة، **المُغرب في تاريخ الأندلس و المغرب**.
- صالح فركوس، **تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال المراحل الكبرى**.
- نصر الدين بن داود، **بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ-13م إلى القرن 10هـ-16م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ و علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2010م.
- محمد بو شقيف، **تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 8 و 9هـ/14-15م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ و علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2011م.
- أحمد بن محمد المقري، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**.
1- أحمد بن سعيد المجيلدي، **كتاب التيسير في أحكام التسعير** ، تقديم وتحقيق موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، 1982م، ص25.